مجلة تراثية فصلية محكمة

١

الأقواس

WWW.ATTAWEEL.COM

تصدر عن
دار الشؤون الثقافية العامة
- وزارة الثقافة والاعلام
الجمهورية العراقية

المجلد الثامن عشر
العدد الاول
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

أسعد الدين محمد

مقابسات
في الفلسفة الصوفية
القسم الرابع

بين آربري والنفري (تابع)

عزيز سارف

بغداد ـ المنصور ـ حي المهندسين

أعرض هنا خمسة نصوص من (كتاب المواقف) للشيخ النفري مع ترجمة الأستاذ آربري لها بالانكليزية . وهي ـ كما سنرى ـ من الاشارات الصوفية البالغة العمق في دلالتها ، وتغلب عليها فكرة الترابط الإضافي بين الوجود والخلق .

وسنرى كيف ان الترجمة الانكليزية قد فاتتها دلالة هذه النصوص فابتعدت عن المعنى الصوفي العميق الذي أراده النفري وقصد اليه .

(١)

نص النفري[1] :

« أنت ضالتي وأنا ضالتك ومامنّا مَنْ غاب » .

ترجمة آربري للنص[2] :

(Thou art my Wandering beast, and I am thine: he who is absent is not of us)

استدراك وتعليق :

تتوقفنا في هذا النص عبارة « أنت ضالتي وأنا ضالتك » . و « الضّالة ـ (لغةً) ـ ماضَلَّ من البهائم . . وتقع على الذكر والانثى والاثنين والجمع . . والضالة من الإبل : التي بمضيعة لايعرف لها رب . . وقد تطلق الضالة على المعاني ومنه الكلمة الحكيمة : ضالة المؤمن ، وفي رواية : ضالة كل حكيم ، أي لايزال يتطلبها كما يتطلب الرجل ضالته . . »[3] .

ومن الواضح ان الشيخ النفري أراد بهذه العبارة أن يقول ـ وقد تصور أن الحق سبحانه قد خاطب بها العبد ـ (ياعبد ! أنت بغيتي وطلبتي ، وأنا بغيتك وطلبتك » ـ وهذا المعنى مفهوم ومنوضحه .

أما ترجمة الاستاذ آربري لهذه العبارة فتقول :

« أنت بهيمتي الضالة وأنا بهيمتك الضالة » ، والترجمة ـ كما ترى ـ لاتؤدي هنا أي معنى ، وهي الى ذلك غير مقبولة ، وكيف لأحدٍ أن يقبل مثل هذا الكلام في مواجهة الحق جَلَّ شأنه .

ما الذي أراده النفري اذن بقوله : « أنت ضالتي وأنا ضالتك » ؟

الذي نراه أن النفري كان يشير الى فكرة عميقة تتردد دائماً عند الصوفية ، تلك هي فكرة الترابط الإضافي بين الرجود والخلق .

ولقد عبّر الشيخ محي الدين بن عربي عن هذا الترابط الإضافي بقوله

WWW.ATTAWHID.COM

في (كتاب المسائل) :

« . . . من أردته لم تصل اليه الا به ، ومن أراد أن يصل اليك لم يصل الا بك »[٣] .

ويفرق الصوفية بين « الذات » وبين « الوهية الذات » فالذات الالهية تتعالى عن أي تصور وتمتنع عن أي ادراك .

يقول ابن عربي : « الذات الالهية منزهة عن أن يكون لها بعالم الكون والخلق والأمر مناسبة أو تعلق بنوع ما من الأنواع . . »[٤] .

أما « الوهية الذات » فهي التي تقبل الصفات ، وتقبل النسب والاضافات ، ومن هنا فهي تتطلب المألوه ويتطلبها المألوه .

ويوضح لنا ابن عربي هذا الفرق بين « الذات » وبين « الوهية الذات » في هذه الصورة البالغة العمق ، الرائعة الجمال ، الدقيقة كل الدقة في دلالتها ، ننقلها من كتابه « الفتوحات المكية » :

« . . . الدائرة ، مطلقةٌ ، مرتبطةٌ بالنقطة .

النقطة ، مطلقةٌ ، ليست مرتبطةً بالدائرة .

نقطة الدائرة ، مرتبطةٌ بالدائرة . ـ كذلك الذات مطلقةٌ ، ليست مرتبطةً بك . الوهية الذات ، مرتبطةٌ بالمألوه (وهو أنت) كنقطة الدائرة (في ارتباطها بالدائرة) »[٥] .

ويشرح لنا ابن عربي هذا الترابط الاضافي قائلاً :

« . . فكل ماثبت لله تعالىٰ من الأحكام ماثبت الا بالعالَم . . . فلو ارتفع العالم من الذهن ارتفعت الأحكام الإلهية كلها وبقي العين بلا حكم ، واذا بقي بلا حكم وان كان واجب الوجود لذاته لم يلزم أن يكون له حكم الألوهة ، فوجود أعياننا من وجوده ، ووجودنا أثبت العلم به في ذواتنا . . . »[٨] .

على فكرة الترابط الإضافي هذه تدور كثير من اشارات النفري .

قال في (كتاب المواقف) :

«فرضت عليك أن تعرف من أنت ، أنت وليّي وأنا وليُّك »[٩] .

وقال : « أنا ناظرك وأحب أن تنظر اليَّ »[١٠] .

وقال : « اما أن تدعوني فأتيك ، واما ان ادعوك فتأتيني »[١١] .

وقال : « أين جعلت اسمي فثم اجعل اسمك »[١٢] ، والى هذا المعنى أشار النفري بقوله :

« أنت ضالتي وأنا ضالتك » .

(٢)

نص النفري[١٣] :

« أنت ضالتي فاذا أوجدتنيك فأنت حسبي » .

ترجمة آربري للنص[١٤] :

(Thou art my stray camel: when I make myself to find thee, thou art enough for Me).

استدراك وتعليق :

يشير نص النفري ـ كما نرىٰ ـ الىٰ فكرة الترابط الإضافي بين الوجود والخلق ، أما ترجمة آربري للنص فلا تدلنا علىٰ هذا المعنىٰ ، ولنا على هذه الترجمة ملاحظتان :

الملاحظة الأولىٰ :

من الواضح ان عبارة (أنت ضالتي) في نص النفري انما تعني « أنت طلبتي وبغيتي » ، أما في ترجمة آربري فمعناها « أنت بعيري الضال » ، وهذا المعنىٰ ـ كما نرىٰ ـ بعيد عن قصد النفري .

ما الذي قصد النفري بقوله : « أنت ضالتي » ؟

لتوضيح هذا المعنىٰ سأضرب مثلاً :

(« السيد » اسم اضافي يحتاج الى حافظ)[١٥] ، والذي يحفظ للسيد سيادته هو « المسود » فلا سيد في الحقيقة بلا مسود . واذا عدم المسود عدم السيد .

فالمسود اذن هو ضالة السيد ، يتطلبه أبداً ويسعىٰ اليه . وهكذا جميع الأسماء الإضافية .

قال ابن عربي في كتابه (الفتوحات المكية) :

« فأوجد العالم ـ سبحانه ـ ليَظهر سلطانُ الأسماء : فان

(قدرة) بلا مقدور ، و (جوداً) بلا عطاء ، و (رازقاً) بلا مرزوق . . حقائق معطلة التأثير »[16] .

وقال ابن عربي في « كتاب المسائل » :

« . . . المتوجه على ايجاد كل ماسوى الله تعالى انما هو الالوهية واحكامها ونسبها واضافاتها المعبَّر عنها (بالأسماء والصفات) وهي التي استدعت (الآثار) ووجود كل ماسواها :

إذ لاقاهر بلا مقهور ، وقادر بلا مقدور ، وراحم بلا مرحوم ، وخالق بلا مخلوق ، الى جميع الأسماء الاضافية . . »[17] .

الملاحظة الثانية :

ذهب الاستاذ آربري في ترجمته لعبارة النفري « فاذا اوجدتنيك » الى أن معناها :

« فاذا ـ أنا ـ جعلتُ نفسي أن أجدك » ـ والذي نراه أن معناها : « فاذا أنت جعلتني أجدك وأظفر بك » ، جاء في (اللسان) : « . . . اوجده أياه : جعله يجده . . . وأوجده الله مطلوبَه : أي اظفره به . . »[18] مامعنىٰ : أنت جعلتني أجدك ؟

لغرض التوضيح نعود الى مثلنا السابق ذكره فنقول :

إن « السيد » يتطلب « المسود » ، فلا سيد بلا مسود ؛ غير أن « وجود المسود » ـ من جهة أخرىٰ ـ يتوقف على وجود السيد ، فلا مسود في الحقيقة بلا سيد .

ومن هنا يسعىٰ (المسود) جاهداً في طلب السيد ليتيح له (للسيد) أن يظفر به فيسود عليه ، فلولا المسود في الحقيقة لما تحققت سيادة السيد .

الى مثل هذا المعنىٰ الدقيق أشار النفري بقوله :

« أوجدتنيك » ـ أي أنت جعلتني أجدك ـ ، لاكما ذهب آربري في ترجمته .

والى مثل هذا المعنىٰ يذهب ابن عربي في « كتاب الأسرا » حيث يقول :

« . . . عبدي . . . لولاك ماعبدت ولاوحّدت ولاعُلمت

(٣)

نص النفري[20] :

« انظر اليّ ، لما جعلتك ضالتي ألم أقبل عليك ؟ » .

ترجمة آربري للنص[21] :

(Consider Me, why I have made thee my wandering beast: have I not turned to thee ?).

استدراك وتعليق :

يدور هذا النص ـ كما يبدو لنا ـ حول فكرة الترابط الإضافي السابق ذكرها . أما الترجمة الانكليزية فقد ابتعدت عن دلالة النص ، ولنا عليها ملاحظتان :

الملاحظة الأولى : ان عبارة « جعلتك ضالتي » في نص النفري تعني ـ كما هو واضح ـ « جعلتك قصدي وبغيتي » وليس كما جاء في الترجمة : « جعلتك بهيمتي الضالة » .

الملاحظة الثانية : ذهب الأستاذ آربري في ترجمته الى أن كلمة « لما » في هذا النص هي بمعنى (لِمَ أو لماذا) الإستفهامية . والذي نراه أن « لما » هنا (بفتح اللام وتشديد الميم) هي بمعنىٰ (حين) الدالة على الظرفية الزمانية . فكأن النفري أراد أن يقول :

« تأمل فيما أقوله لك ! حين جعلتك قصدي ومطلوبي أقبلت عليك طالباً » .

والطالب والمطلوب (اللذان يومىء اليهما نص النفري) اسمان متضايفان ، يتوافقان في الزمان ؛ كلاهما يوجدان معاً في آنٍ واحد ؛ ووجود (الطالب) يقتضي وجود المطلوب والاّ فهو طالب مَنْ ؟ ووجود (المطلوب) يقتضي وجود الطالب والاّ فهو مطلوب مَنْ ؟

ومن هنا كانت (لما) في نص النفري بمعنىٰ (حين) الظرفية الزمانية ، وليست بمعنىٰ (لماذا Why) الاستفهامية ، كما ذهبت اليه الترجمة .

(٤)

نص النفري[22] :

« إن كان غيري ضالتك فاظفر بالحرب » .

ترجمة آربري للنص[23] :

(If other than I be thy wandering beast, then take possession of perdition).

استدراك وتعليق :

من الواضح ان عبارة « ان كان غيري ضالتك » الواردة في نص النفري انما تعني « ان كان غيري مطلبك ومبتغاك » ، اما الاستاذ آربري فقد ذهب بترجمته الى أن معناها : « ان كان غيري بهيمتك الضالة » ـ وهذا المعنىٰ ـ كما ترىٰ ـ بعيد عن قصد النفري ولايعقل أحد أن مثل هذا الكلام يمكن أن يقال في مواجهة الحق سبحانه .

مامعنىٰ نص النفـــري ؟

يدور هذا النص ـ كما ترىٰ ـ حول فكرة الوحدانية عند الصوفية ومايقابلها من الشرك في الوجود ، وهو الشرك الذي يسميه ابن عربي « شرك الغفلة » .

وكثيراً ماردد النفري هذا المعنى . قال في (كتاب المخاطبات) : « ياعبد ! أخلصتك لنفسي فان أردت أن يعلم بك سواي فقد أشركت بي ، واذا سمعت من سواي فقد أشركت بي »[٢١] .

وقال النفري في « كتاب المواقف » :

« كل شيء سواي يدعوك اليه بشركة وأنا ادعوك اليّ وحدي »[٢٥] .

وقال : « أنت عبد السوىٰ مارأيت له أثراً »[٢٦] .

وقال : « آليت لاأقبلك وأنت ذو سبب أو نسب »[٢٧] .

وقال : « ان جعلتَ لغيري عليك مطالبة ، أشركت بي ، فاهرب هربين : هرباً من الغريم ، وهرباً من يدي »[٢٨] .

(٥)

نص النفري[٢٩] :

« ان كنتُ ضالتك تِهْتَ الاّ عني ، وجرتَ الاّ معي » .

ترجمة آربري للنص[٣٠] :

(If I am thy wandering beast, thou errest except from Me, and thou art bewildered except with Me).

استدراك وتعليق :

من الواضح ان عبارة النفري « إن كنتُ ضالتك » الواردة في هذا النص تعني : « ان كنتُ ياعبدي بغيتك وطلبتك » . وقد فات الاستاذ آربري هذا المعنىٰ فترجم هذه العبارة على النحو التالي : « ان كنتُ بهيمتك الضالة » وهذا كلام ـ كما ترىٰ ـ لامعنىٰ له هنا ولايعقل من أحد أن يقوله في مواجهة الحق سبحانه .

مامعنىٰ نص النفـــري ؟

يبدو لنا أن النفري يشير هنا الى ذلك السفر الصوفي ، سفر التيه والحيرة ، سفر مَن يطلب الحق بنفسه لا بالحق .

و « الاسفار ثلاثة لارابع لها »[٣١] كما يقول ابن عربي « وهي سفر من عنده ، وسفر اليه ، وسفر فيه ، وهذا السفر فيه هو سفر التيه والحيرة . . »[٣٢] .

ويتحدث ابن عربي في « كتاب الاسفار » عن المسافرين من عند الحق ، وعن المسافرين الحائرين التائهين الذين يطلبون الحق بأنفسهم ، فيسافرون اليه ، ويسافرون فيه ، ولكنهم لايصلون الا الى أنفسهم .

فأما (المسافرون من عنده) فهم ثلاثة : مسافر مطرود كسفر ابليس ؛ ومسافر عاصٍ مخالف خجل من نفسه أن يقيم في الحضرة مع المخالفة ؛ ومسافر سفر اجتباء واصطفاء كسفر المرسلين من عنده الى خلقه وسفر الوارثين العارفين .

وأما (المسافرون اليه) فمنهم من جسم الحق وشبّهه ، فهؤلاء محجوبون عن رؤية الحق ، لايصلون اليه وانما يصلون الى (الحجاب) وهم أبداً في تيه وحيرة . ومنهم من « نزهه عن كل ما لايليق به بل يستحيل عليه مما جاء في المتشابه في كتابه . . »[٣٣] فهؤلاء في سفرهم هذا لايصلون الى الحق وانما يظلون أبداً تائهين حائرين .

وثمّ صنف ثالث من « المسافرين اليه » هم المعصومون المحفوظون الذين يصلون الى الحق بالحق .

« وأما المسافرون فيه فطائفتان :

طائفة سافرت اليه بأفكارها وعقولها فضلت عن الطريق . . وطائفة (سوفر بها فيه) وهم الرسل والأنبياء والمصطفون من الأولياء كالمحققين من رجال الصوفية . . »[٣٤] .

ولقد أثارت اشارة أبي يزيد البسطامي :

« السالك مردود والطريق مسدود » هواجس بعض الصوفية فتساءل ان كان هذا القول يتعارض مع ماجاء في الحديث النبوي الشريف : « من طلب الله وجده » .

وليس في الحقيقة ثَمَّ تعارض ـ كما أوضح ابن عربي في (رسالة الانتصار) . وذلك أن « قوله (ﷺ) ـ من طلب الله ـ يعني بالله أو بغيره ؛ ان كان بالله فضرورة أن يجده ، ومن طلبه بغيره كيف يصح أن يجده »[1] .

الى هذا المعنىٰ قصد أبو يزيد البسطامي باشارته . فمن طلب الحق بالحق وصل اليه ، أما من طلب الحق بغيره فطريقه أبداً مسدود .

وكثيراً ماكرر النفري هذا المعنىٰ . قال في « كتاب المخاطبات » :

« وكلت حجابي بطلبك لي »[2] وقال :

« ياعبد ! ماتطلب مني ، ان طلبت ماتعرف رضيت بالحجاب وان طلبت مالاتعرف طلبت الحجاب »[3] .

وقال النفري في « كتاب المواقف » :

« من لم يكن جاذبه الله لم يصل الى الله »[4] .

وتتردد عند الصوفية حكاية لها دلالتها ومغزاها . يسأل النبي داود (عليه السلام) الحق ـ سبحانه ـ أين يجده ، فينكر عليه الحق سؤاله ويرد عليه معاتباً ومرشداً .

قال داود :

ـ يارب ! أين أطلبك ؟

ـ ياداود ! أنت من أول قَدَمٍ فارقتني .

ـ يارب ! وكيف ؟

ـ لأنك جعلتَ الطلبَ منك اليَّ ، ولو جعلتَه مني اليك لوجدتني »[5] .

ـــ الهوامش ـــ

١ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ص ٤٣ .

٢ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ترجمة آربري بالانكليزية ـ ص ٥٨ ، الفقرة (١٣) .

٣ ـ راجع (لسان العرب) لابن منظور ـ مادة (ضلل) ـ

٥ ـ ابن عربي ، رسائل ابن العربي ـ كتاب المسائل ـ ص ٨ .

٦ ـ ابن عربي ـ كتاب انشاء الدوائر ـ ص ٣٢ .

٧ ـ محي الدين بن عربي ـ الفتوحات المكية ـ السفر الأول ـ تحقيق د . عثمان يحيىٰ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٢ ـ ص ٢١٢ .

٨ ـ ابن عربي ـ الفتوحات المكية ـ دار صادر ـ بيروت ـ ج٣ ص ٥٤٤ .

٩ ـ النفري ـ كتاب المواقف ، ص ٦١ . ١٠ ـ المصدر السابق ، ص ٣١ .

١١ ـ المصدر السابق ـ ص ١٠٥ . ١٢ ـ المصدر السابق ـ ص ٨٤ .

١٣ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ص ٤١ .

١٤ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ترجمة آرثر آربري ـ ص ٥٦ (الفقرة ١٦) ـ (النص الانكليزي) .

١٥ ـ ابن عربي ـ رسائل ابن العربي ـ كتاب التراجم ـ ص ٢٤ .

١٦ ـ محي الدين ـ ابن عربي ـ الفتوحات المكية ـ تحقيق د . عثمان يحيىٰ ـ السفر الثاني ، ص ٢٢٩ .

١٧ ـ ابن عربي ، رسائل ابن العربي ـ كتاب المسائل ـ ص ٩ .

١٨ ـ راجع (لسان العرب) لابن منظور ـ مادة (وجد) .

١٩ ـ ابن عربي ـ رسائل ابن العربي ـ كتاب الأسرا ـ ص ٧١ .

٢٠ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ص ٤٢ .

٢١ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ترجمة آرثر آربري ـ ص ٥٨ الفقرة (١٢) ـ النص الانكليزي .

٢٢ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ص ٤٢ (الموقف ٢١) .

٢٣ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ترجمة آرثر آربري ـ ص ٥٨ ـ الفقرة (١٠) ـ (الموقف ٢١) ـ (النص الانكليزي) .

٢٤ ـ النفري ـ كتاب المخاطبات ـ ص ١٤٧ . ٢٥ ـ النفري ـ كتاب المواقف ص ٥٧ .

٢٦ ـ المصدر السابق ـ ص ٦٦ . ٢٧ ـ المصدر السابق ـ ص ١٧ .

٢٨ ـ المصدر السابق ـ ص ٤٩ . ٢٩ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ص ٤٢ .

٣٠ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ترجمة آربري ـ ص ٥٨ ـ الفقرة (١١) ـ (النص الانكليزي) .

٣١ ـ ابن عربي ـ رسائل ابن العربي ـ كتاب الأسفار ص ٣ .

٣٢ ـ ابن عربي ـ المصدر السابق ـ ص ٦ . ٣٣ ـ ابن عربي ـ المصدر السابق ـ ص ٧ .

٣٤ ـ ابن عربي ـ رسائل ابن العربي ـ رسالة الانتصار ـ ص ١١ .

٣٥ ـ النفري ـ كتاب المخاطبات ـ ص ١٨٤ . ٣٦ ـ المصدر السابق ـ ص ١٨٧ .

٣٧ ـ النفري ـ كتاب المواقف ـ ص ٨٦ .

٣٨ ـ عز الدين عبدالسلام المقدسي ـ كتاب حل الرموز ومفاتيح الكنوز ـ مخطوط برقم ١٠٣٦٣ (في دار صدام للمخطوطات / بغداد) ـ الورقة (٤) .